الحبيب بورقيبه

2000-1903

بدأ الحبيب بورقيبه حياته منذ شبابه الباكر ثائراً على طريقته من دون أن يحمل السلاح ومن دون أن يحرّض أبناء وطنه على حمله إلا في مرحلة وجيزة. كانت ثورته سياسية بالدرجة الأولى، ودبلوماسية. لكنه ظل يعتبر قائد الحركة الوطنية التونسية منذ أواسط الثلاثينات حتى حصول البلاد على استقلالها في عام 1957. أدخل مرات عديدة إلى السجون. وأرسل مرات عديدة إلى المنافي. وقام بزيارات عديدة إلى مختلف البلدان دعماً للقضية التي أعطاها عمره الأول، قضية استقلال تونس. تبلورت شخصيته القيادية بالتدريج. قرأ سير الأبطال في التاريخ الحديث، فأحب منهم أتاتورك، ونأى بنفسه عن لينين وهو شي منه. تعلم من تجربته ومن تجارب من سبقوه إلى قيادة بلدانهم أن موقع القيادة يؤخذ ولا يعطى. فاستخدم كل ما كان بإمكانه أن يستخدمه من وسائل، حتى وهو في مطالع شبابه، من أجل أن يكون صاحب القرار من دون شريك قوي. فأزاح من طريقه عندما بلغ سن الرشد في العمل السياسي وصار ذا قامة سياسية معروفة في البلاد، عدداً ممن كانوا الأقرب إليه في المواقف لكي ينفرد من دونهم بالسلطة داخل الحزب الدستوري أولاً، ثم في المواقع الأساسية في الحكم عندما أصبح رئيساً للحكومة في عهد محمد الأمين باي، وصولاً إلى المرحلة التي أصبح فيها أول رئيس للجمهورية مدى الحياة. وكان يراوده منذ أن أصبح رئيساً للجمهورية شعار أنا الدولة والدولة أنا، تقليداً للويس الرابع عشر في الدولة الفرنسية القديمة. ومن موقعه في رئاسة البلاد، واستناداً إلى ما كان قد حصل عليه من معارف عندما كان يتابع دراسته في جامعة السوربون، ثم في المرحلة التي مارس فيها مهنة المحاماة، ثم في قراءاته المتنوعة في الثقافة على اختلافها، من موقعه ذاك اتخذ سلسلة مهمة من القرارات. أراد منها نقل تونس من دولة متخلفة إلى دولة عصرية حديثة مؤهلة لأن تكون جزءاً من العالم المعاصر الذي كانت أوروبا بالنسبة إليه نموذجه الأرقى حضارة والأكثر تقدماً.

ولد الحبيب مع ولادة القرن العشرين. وغادر الحياة في آخر القرن. واختلف المؤرخون في تحديد عام الولادة بين 1900 و1901 و1903. كان ثامن أخوته. وكان أصغرهم سناً. اهتم بتربيته شقيقه الأكبر محمود. ويقول بورقيبه عندما أصبح راشداً أن جذوره العائلية ليبية. ويذهب بعض المؤرخين، كما يقول الصافي سعيد في كتابه "بورقيبه سيرة شبه محرمة" الذي اعتمدته مرجعاً أساسياً في بحثي هذا لما تميز به من عمق في البحث في سيرة بورقيبه، يذهبون إلى احتمال أن تكون جذور العائلة ألبانية أو يونانية. وهي تفاصيل ليست ذات أهمية في سيرة الرجل. سجله أخوه محمود في مدرسة الصادقية. وحين نجح في القسم الأول من البكالوريا اختار الفلسفة أولاً ثم اتجه نحو القانون. وبعد اجتيازه المرحلة الثانية من البكالوريا أدخله شقيقه محمود في معهد "كارنو" في تونس لدراسة اللغة الفرنسية وللحصول على المعارف الأولية في الفلسفة وفي الرياضيات وفي علم التاريخ. في ذلك المعهد بالذات نشأت علاقته باثنين ممن شكل معهما الثالوث الساحلي وهما بحري قيقه والطاهر صفر. ثم أرسله أخوه محمود إلى باريس لمتابعة دراسته في جامعة السوربون في فرع الحقوق والعلوم السياسية. وقال له وهو يودعه: "أريدك أن تعود لنا رجلاً، لا محامياً فقط". لم يكتف في السوربون بدراسة القانون. فسجل نفسه في فرعي الأدب وعلم النفس. كانت باريس بالنسبة إليه مركزاً رائعاً للحضارة الجديدة. ولأنه كان شغوفاً بالأدب وبالفلسفة فقد قرأ الكثير مما حفلت به المكتبات من آثار كبار رموزهما من الفرنسيين. وتأثر كثيراً بالمصلح التونسي الطاهر حداد وإن لم يدافع عنه خلال محنته الشهيرة عندما هاجمه المحافظون وجردوه من شهادته العلمية التي حصل عليها من جامع الزيتونة على إثر صدور كتابه الشهير " إمرأتنا في الشريعة والمجتمع ". وصارت واحدة من اهتماماته وانشغالاته قضية البحث عن الطريق الذي يقود وطنه تونس إلى ما وصلت إليه فرنسا من رقي حضاري. وتحوّلت تلك الإهتمامات والإنشغالات عنده إلى صياغة تجربته هو بالذات في قيادة تونس إلى ذلك المستقبل.

في أجواء باريس بدأت تتكون الملامح الأولى من شخصيته التي لم يتأخر في إعطائها صورتها الواضحة والنهائية في المراحل اللاحقة من حياته كقائد سياسي في حزب الدستور الحر أولاً، ثم في حزب الدستور الجديد الذي انشق عن الحزب الأصلي. وكان من أوائل ما شغله في تكوين شخصيته النموذج الذي سيختاره لحياته في اتجاه المجد القادم. أعجب بشخصية جان جوريس القائد الإشتراكي الفرنسي. كما أعجب بأتاتورك. ورغم أنه كان صديقاً حميماً في الدراسة في السوربون للشيوعي التونسي محمود الماطري فإنه لم يشاركه آراءه مفضلاً العمل في السياسة من دون الإلتزام بأيديولوجيا معينة. عاد الحبيب إلى تونس في عام 1927 حاملاً معه شهادة الحقوق. وكان قد تزوج من سيدة فرنسية مطلقة اسمها ماتيلدا. كانت تكبره باثني عشر عاماً. وكان قد دفعه للتعرف عليها أحد أصدقائه. وبزواجه منها أمن حياته بعد أن كان يعاني الكثير من الصعوبات في تأمين شروطها الألولية. عاد إلى تونس بعد نيله شهادة الحقوق ومعه زوجته ماتيلدا. مارس مهنة المحاماة وعمل في الصحافة في الآن ذاته. وكان الجمع بالنسبة إليه بين العمل في المحاماة والكتابة في الصحافة طريقه المفضل إلى البروز كشخصية سياسية معروفة.

بدأت طموحات بورقيبه السياسية تقوى في أواخر عشرينات القرن. وبدأ يبحث عن المكان الذي ينطلق منه في ممارسته نشاطه السياسي المباشر حول القضية الوطنية، قضية استقلال تونس وتحريرها من السيطرة الفرنسية ومن سلطة الباي الملكية المرتبطة بفرنسا. وكان أول ما لفت نظره كمركز لنشاطه السياسي الحزب الدستوري الحر الذي كان قد أسسه الشيخ الثعالبي والمحامي أحمد الصافي في عام 1920. وكان ذلك الحزب هو الإطار الذي التقى في صفوفه الوطنيون التونسيون من كل الإتجاهات بما في ذلك الإتجاه الشيوعي الذي كان يمثله في الحزب القائد الشيوعي المعروف سليمان بن سليمان، الذي أصبح فيما بعد الأمين العام للحزب الشيوعي التونسي بعد استقلال الحزب عن الحزب الشيوعي الفرنسي. لكن الحزب الدستوري الحر بدأ يواجه انقسامات في مطلع عام 1921 لأسباب

سياسية ولطموحات شخصية بين قياداته. ويذكر الصافي سعيد في كتابه الآنف الذكر أنه عندما تأسس الحزب الدستوري الحر في عام 1920 كانت قد بدأت تتشكل في الآن ذاته، برغم وجود شيوعيين في صفوفه، الحلقات الأولى للحزب الشيوعي التونسي. ومعروف أن هذا الحزب قد تأسس في بدايته كفرع للحزب الشيوعي الفرنسي بعد تكون هذا الحزب من الإنشقاق الذي حصل في الحزب الإشتراكي الفرنسي بتوجيه ودعم من الأممية الشيوعية بعد تأسيسها في عام 1919.

عندما عاد الحبيب إلى تونس في عام 1927 بدأ ينضج أمامه الطريق إلى مستقبله السياسي. وإذ كان قد انضم إلى الحزب الدستوري الحر فقد رأى أن الحزب قد بدأ يفقد بريقه، ولم يعد هو الحزب الذي يلبي طموحه ويتطابق مع الحالة الجديدة الناشئة في تونس، الحالة التي كانت في نظره تستدعي نضالا أكثر وضوحاً وأكثر حزماً في اتجاه تحقيق استقلال تونس عن فرنسا في صيغة من الصيغ. رأى أن الحزب قد تحوّل إلى ملتقى أبناء العائلات، وأصبح حزباً من دون برنامج نضالي، رغم أنه كان أول حزب وطني تشكل في البلاد لقيادة النضال من أجل الإستقلال بقيادة المصلح السياسي المعرف الشيخ عبد العزيز الثعالبي. في ضوء رؤيته تلك لواقع الحزب وللوضع الجديد في البلاد قرر الحبيب أن ينسحب منه تدريجياً ويفكر في العمل على إعادة تأسيسه على أسس جديدة.

ابتداء من عام 1930 استقل بورقيبه في مكتب محاماة خاص به. وتابع في الآن ذاته اهتمامه بالكتابة في الصحافة. في عام 1931، الذي اعتبره التونسيون عام النكبة لأنه يؤرخ لمرور خمسين عاماً على احتلال تونس من قبل الفرنسيين، ارتفع صوت بورقيبه عالياً في مقالاته في جريدة الحزب الدستوري الحر. وجاء في أحد مقالاته أن على فرنسا إذا أرادت الحفاظ على أمنها والخروج من حالة الغليان القائمة في البلاد أن تساعد على إقامة دولة تونسية حرة. اعتبرت قيادة الحزب الدستوري الحر موقف بورقيبه محرجاً لها. وانتهى الأمر بإخراجه من الجريدة مع بعض أصدقائه. فأصدروا جريدة خاصة بهم في

عام 1932. ولم يلبث أن طرد بورقيبه من الحزب في أعقاب ذلك. فلجأ مع بعض أصدقائه إلى تأسيس حزب جديد تحت اسم الحزب الدستوري الجديد. وانتخب أميناً عاماً له. وأصدر الحزب الجديد جريدة خاصة به. ودعا الحزب الجديد في أحد بياناته إلى مقاطعة البضائع الفرنسية والإمتناع عن دفع الضرائب. كما دعا إلى تنظيم إضرابات. الأمر الذي أثار غضب المقيم الفرنسي. فاعتقل عدداً من قادة الحزب كان بينهم بورقيبه وعدد من الشيوعيين، وتم نفيهم إلى خارج البلاد. وأقفلت جريدة الحزب.

ورداً على تلك الإعتقالات جرت في منطقة الساحل اضطرابات قمعها الجيش الفرنسي بقوة. وسقط فيها قتلى وجرحى. وهكذا بدأ يصعد بورقيبه إلى القمة. إذ بدأ الصراع بين الحركة الوطنية والسلطات الفرنسية يتخذ طابع الحدة. وفي عام 1938 تجددت المظاهرات احتجاجاً على اعتقال زعماء الحزب الدستوري الجديد. وقمعت من قبل السلطات الفرنسية. وكان بورقيبه في تلك المرحلة المضطربة يخرج من السجن ليدخل في السجن من جديد. وصار زعيماً سياسياً وقائداً بارزاً من قادة حركة التحرر الوطني. لكنه لم يكن الزعيم الأوحد. كان له شركاء ممن كانوا أصدقاء له وممن صاروا خصوماً له في مراحل لاحقة. وأكثر أصدقائه الأوائل الذي تحوّل إلى خصم له مدى الحياة هو صالح بن يوسف. وكان صالح بن يوسف بالتحديد أحد كبار قادة الحركة الوطنية. أما فرحات حشاد الذي كان قائداً نقابياً بارزاً فقد اغتيل. وشكل اغتياله خسارة لبورقيبه كما أعلن ذلك.

استمر الصراع على الحزب الدستوري الجديد وسط المعارك التي كانت دائرة بين الحركة الوطنية والسلطات الفرنسية، حول الطريقة التي كان يفترض أن يتم بها التفاوض مع الفرنسيين من أجل الإستقلال وحول الطريقة التي كان يفترض أن يتم بها العمل السياسي والمسلح ضد الفرنسيين. كان بورقيبه يغتنم فرصة خروجه من السجن ليسافر إلى بلدان عديدة. وأقام علاقات سياسية عديدة مع القوى السياسية في البلدان العربية وفي البلدان الأجنبية. وظل الأمر بالنسبة إليه على هذا المنوال مناضلاً في داخل البلاد متنقلاً من

سجن إلى سجن ومن منفى إلى منفى، ومن بلد إلى بلد في زيارات سياسية متعددة، إلى أن بدأت تطرح في شكل جدي قضية الإستقلال تحت الوصاية. وانتهى الأمر في عام 1955 بالإتفاق على استقلال مشروط سمّي بالإستقلال الداخلي، وبمقتضاه تم تشكيل حكومة برئاسة بورقيبه مع الإحتفاظ بسلطة الباي والإبقاء على جوانب من مظاهر التبعية لفرنسا مثل الخارجية والدفاع والوجود العسكري الفرنسي. وكان من شروط ذلك الإتفاق أن يتم جمع السلاح الذي شاع في البلاد بقرار ومن دون قرار. كان ذلك الكفاح الشكل الآخر من النضال الذي كان يقوده بورقيبه وآخرون من اتجاهات مختلفة ومن مواقع مختلفة تحت شعار الإستقلال الوطني الكامل وغير المشروط، وخروج القوات الفرنسية من البلاد.

رفض صالح بن يوسف الأمين العام للحزب اتفاق الإستقلال الداخلي، واعتبره خطوة إلى الوراء، وخيانة للمشروع الوطني. وهو ما أدى إلى اندلاع صراع مسلح مفتوح بين الجناحين. وازدادت المواجهة بين الطرفين بعد أن لقي صالح بن يوسف دعما قويا من قبل الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

استفاد بورقيبه من تلك الأزمة الداخلية، وتمكن من إقناع الفرنسيين بضرورة الحصول على الإستقلال التام. وهكذا تحوّل فيها النضال من أجل الإستقلال إلى شعار وطني عام، الأمر الذي جعل بورقيبه يقوم بخطوة جريئة في اتجاه الإستقلال الناجز في عام 1956. ساعده في ذلك موقعه كرئيس حكومة وكقائد وطني معترف له بدوره الكبير.

التقى بورقيبه أكثر من مرة مع ديغول ومع مسؤولين فرنسيين. وكانت الثورة الجزائرية في أوجها. وكان العالم العربي في غمرة تحوّلاته الكبرى في اتجاه التحرر والإستقلال في مشرق العالم العربي وفي مغربه. وكان قد أصبح في عام 1956 زعيم البلاد المطلق. كان يسيطر على الحزب الدستوري من دون منازع. كما كان يسيطر على المجلس التأسيسي وعلى الحكومة. وكان من مواقعه كلها تلك يعد العدة للتخلص من الباي ليصبح

هو ذاته الباي الجديد في دولة تونس الحرة. ولم يتأخر الزمن. جاء ذلك في عام 1957. خلع بورقيبه الباي ليصبح هو رئيساً متوجاً للجمهورية. وبدأت فرنسا تخرج من البلاد بالتدريج. وأبقت قواتها في مدينة بنزرت. ولم تخرج تلك القوات إلا بمعركة ومجزرة. وهكذا صار بورقيبه محرر تونس وبطلها حاملاً لقب المجاهد الأكبر. وكان أول ما قام به بورقيبه عندما أصبح رئيساً للحكومة، أي قبل أن يصبح رئيساً للجمهورية، هو إصدار مجموعة من القوانين في مقدمتها قانون الأحوال الشخصية الذي يمنع تعدد الزوجات ويخضع الطلاق للقضاء ويسمح بالإجهاض. وأطلق وهو يجول في المناطق في حملته الإنتخابية لرئاسة الجمهورية شعار إلغاء الحجاب. والطريف في هذا الموضوع أنه في أحد لقاءاته مع جمهور كبير من التونسيين وجد نفسه وجهاً لوجه أمام عدد من النساء المحجبات بالزي التقليدي المعروف في تونس باسم (السفساري) تغطي به المرأة جانبا من وجهها. فاختار واحدة منهن وكشف عن وجهها وقال بأعلى صوته "هل يجوز أن يبقى هذا الجمال محجوباً؟". فخلعت جميع النساء نقابها وصفق الجميع نساءً ورجالاً لهذا الحدث.

اتخذ بورقيبه سلسلة مواقف سياسية جريئة إزاء الكثير من القضايا العربية والدولية. ولعل أكثر تلك المواقف ما يتصل بالقضية الفلسطينية. فقد ذهب في عام 1965 إلى أريحا ليعلن في خطاب مدوّ رأياً مغايراً للموقف الذي كان سائداً في العالم العربي في ذلك الحين طالب فيها من الدول العربية الموافقة على قرار التقسيم كشعار من أجل إحراج إسرائيل والدول التي تدعمها، داعياً الفلسطينيين إلى الإستمرار في النضال بكافة أشكاله لاستعادة الأرض. واستند في موقفه ذاك إلى العجز العربي العام، العجز الذي كان يقترن بالشعارات الفارغة وبالمغامرات التي دفع الشعب الفلسطيني سابقاً ولاحقاً ثمنها الباهظ. وقد استقبلت مواقفه تلك بالشجب رسمياً وشعبياً. ورشق في بيروت بالبيض من قبل الجماهير التي احتشدت في وسط العاصمة بيروت موجهة إليه تهمة الخيانة.

تابعت بكثير من التفاصيل سيرة بورقيبه ومسار الثورة التونسية التي كان أحد أبطالها. لكني لم أجد أفضل من هذه الكلمات التي قالها الصافي سعيد في كتابه "بورقيبه سيرة شبه محرمة" في وصف شخصية بورقيبه. يقول الصافي سعيد: "كان بورقيبه مسحوراً بالغرب وبمعتقداته. وكان إلى جانب ذلك مأخوذاً بتراث اليعاقبة وبتجربة كمال أتاتورك. إذ رأى فيه زعيماً وطنياً كبيراً ومصلحاً ليبرالياً تجاوز الأفكار الإصلاحية التي قامت على الدين في عموم الشرق الإسلامي. وثمة إغراء آخر سيطر على بورقيبه سيطرة كاملة هو إغراء التجريبية منذ اطلاعه على كتابات برغسون. وفي كل ذلك كان العقل هو نقطة الإنطلاق لدى بورقيبه... كان مسحوراً بالغرب ومأخوذاً بتجربة أتاتورك ومدفوعاً بروح الهيمنة ومتسلحاً بالعقل ومثقلاً بمهمات ثقيلة وخلاصية. سار بورقيبه بسرعة نحو تثوير التشريعات. ولأنه كان على وعي كبير بقوة أعدائه وبقدرتهم على إحباط مشاريعه، فقد اختار لتلك المهمة أحد أبناء البورجوازية القديمة. وهو شاب لعب دوراً كبيراً في تنويم الباي قبل خلعه. إنه أحمد المستيري الذي ينتمي إلى بورجوازية العاصمة والذي سيكون المشرف على تحرير مدونة القوانين الجديدة باعتباره وزيراً للعدل. وسيلعب دوراً كبيراً كذلك في ربط الصلة بين أبناء الساحل المنتصرين في معركتهم السياسية وأبناء البرجوازية الكبيرة للعاصمة، الذين راحوا يستعدون للإندماج في مشروع بناء دولة الإستقلال الحديثة. بعد إلغاء ما يسمى بالأوقاف في أيار 1956 تحرر ما يقارب ربع الأراضي التونسية من التجميد والتهميش. فكانت تونس أول بلد عربي إسلامي يلغي العمل بقانون الأوقاف. وحين صدرت مجلة الأحوال الشخصية في تموز 1959 التي نصت على إلغاء تعدد الزوجات كان بورقيبه أول حاكم عربي إسلامي يتجرأ على "تحطيم" عرف معمول به منذ 14 قرناً، ليحطم بذلك سلطة "الرجل الشرقي" الذي يناصبه العداء منذ الصغر... وعندما لم يتجرأ على مهاجمة الصوم أثبت أنه لا يريد أن يكون شبيهاً بأحد. فقبل ثلاثة أسابيع من شهر رمضان لعام 1960، تحدث بورقيبه أمام كوادر حزب الدستور عن حق تأويل النص القرآني. وقد روى كيف أن الرسول قد اضطر إلى الأكل خلال رمضان حين كان عليه أن يحارب الأعداء.

ثم قال بصريح العبارة:"أنا أيضاً أقول لكم ألا تضعوا الصوم فوق اعتبار محاربة العدو الذي هو الفقر والبؤس والإنحطاط والتخلف. إني أحذر من إهمال الواجبات. وإن التوقيت الإداري والمدرسي المعمول به سوف لن يتغير خلال شهر رمضان. إنني لا أفعل شيئاً غير تأويل القرآن وأعلن أن ذلك هو رأيي الشخصي. وإذا أنتم غير مقتنعين فأنتم أحرار. لم يكن بورقيبه يتصور أن الغضب سيبلغ مداه بعد أن مد يديه إلى مقدسات الإسلام وأركانه الأساسية. امتلأت المساجد في عموم الجمهورية بالمحتجين على "دعوات التكفير" وانتظمت مظاهرات عنيفة في كل من القيروان وفقصة وتونس العاصمة. فسقط العديد من الضحايا. وإذ تراجع بورقيبه قائلاً بعد صمت قصير إنه لم يدع أحداً إلى الكفر ولم يرغم أحداً على نكران رمضان، فإن خصمه صالح بن يوسف قد انهال عليه انطلاقاً من "صوت العرب" بالقاهرة بجميع الأوصاف القبيحة كما لو أنه ضبط سارقاً في بيته. أما التونسيون الذين كان بورقيبه يدفعهم نحو التحرر من الماضي والعادات البالية فقد راحوا يسخرون منه قائلين في سرهم: "لم يعد أمام بورقيبه ما يفعله غير تغيير القرآن. وقريباً سنشاهده يقوم بحملة لتهديم الصوامع" أو "إن هذا الرجل الذي يحرم ما أباحه الله ويبيح ما حرمه الله قد يرغمنا قريباً على حمل الصليب"... خاب أمل بورقيبه مرة أخرى من الشعب الذي أراد أن يقوده إلى الجنة بالسلاسل! وقال لوزيره الأول الباهي الأدغم:"إن التونسيين يحبون السكن في الماضي". لكنه أضاف بلهجة ملؤها السخرية والوعيد:"سأحضر لهم البقلاوة أو سأريهم النجوم في وضح النهار. إنهم لا يعرفون بورقيبه". أطلق تحذيره في الراديو تجاه كل من يمس النظام العام ودعا إلى العودة إلى الهدوء بسرعة. ثم اتجه في جولة تأديبية وتربوية نحو الداخل. وإذ أمر بضرب بعض الولاة الذين لم يتحكموا في حالة الأمن فإنه تحوّل هو ذاته إلى خطيب في الساحات العامة. فتكلم بلا حدود كما لو لم يتكلم أبداً. لقد عاد إلى الخطابة، ذلك السلاح الذي لا يزال يفتك بجميع أعدائه. إن علاقة بورقيبه بشعبه كانت مركبة ومعقدة. فهذا الشعب لا يفقد عناصر مقاومته التقليدية إلا إذا فتح بورقيبه خزان عباراته وسجالاته وحكاياته النضالية والسياسية! إنه ليس مجرد زعيم أو رئيس بلاد يخطب

في جمهور يتلقى كل شيء عبر الأذن مطوراً بذلك ثقافة سمعية قوية استمرت حتى الآن! وإنما هو أكثر من ذلك بكثير. إنه ساحر يثير الفتنة في كل اتجاه. إنه يعرف كيف يجد العبارة المناسبة وكيف يرميها إلى الناس فتتحوّل إلى شحنة من النار. يعرف كيف ينغم صوته ويرخمه، كيف يرفع من وتيرته ويوتره. وكيف يسخر فيتلاعب بالألفاظ ثم كيف يروي فيصنع الأبطال والخونة كما في الحكايات الشعبية! وكيف يعلق صوته في الفضاء فيحبس أنفاس الناس. وكيف يرخيه إلى حد الإرتطام فيبعث صوتاً نحاسياً يجعل الناس مسمرين في أماكنهم بذهول شديد. يعرف كيف يخنق الكلام في الحلق وكيف يعض الألفاظ بوجع وكيف يستلها بيديه اللاعبتين في الهواء الراسمين للآفاق والحدود والقوة، المليئتين بالألغاز والوعود والمنفتحتين على ضرب الهواء والمغلقتين المكورتين لضرب المستحيل! كان يتكلم في كل شيء في شؤون الطنجرة كما في التنظيم العائلي، وفي شؤون الثورات كما في ضرورة المسرح لتربية الأذواق، وفي الأغاني الشعبية كما في الموضة وتحسين الهندام، وفي شؤون المدارس والتعليم كما في عدم جدوى تربية الماعز، وفي تاريخ الإسلام كما في أهمية الرياضة. لم يترك مسجداً أو ساحة عامة أو مدرسة إلا ووقف فيها خطيباً. ولم يترك مسألة أو ذكرى أو ثورة أو حادثة أو عيداً وطنياً إلا وخطب بمناسبته. لقد جال في البلاد طولاً وعرضاً ولم يعد إلى قصره إلا حين أنهى "مهمته المقدسة" فاتحاً الطريق أمام ما أسماه "بالجهاد الأكبر". فبعد شهرين كاملين عاد بورقيبه متعباً ومرهقاً ولكنه شعر بكثير من الراحة لأنه أفرغ كل ما كان يثقل صدره. وما إن استراح قليلاً حتى كان عليه أن ينهمك في معارك أخرى أكثر ضراوة".

هذه الصورة التي قدمها الصافي سعيد تعكس إلى حد كبير الصورة الحقيقية لبورقيبه الذي ما إن استتبت له الأمور كرئيس للبلاد حتى تحوّل إلى زعيم فرد. وعبّر عن هذه الصورة القرار الذي اتخذه الحزب الدستوري والبرلمان بتتويج بورقيبه رئيساً لتونس مدى الحياة. وكان بورقيبه قد تزوج من السيدة وسيلة التي صارت شريكاً أساسياً له في السلطة.

واستمر في موقعه في السلطة في تلك الطريقة المشار إليها إلى أن قام بالإنقلاب عليه في عام 1987 أحد وزرائه الجنرال زين العابدين بن علي مستفيداً من السخط الشعبي الذي كانت تواجه به سلطة بورقيبه. ومعروف أن بن علي كان في رئاسته تونس أسوأ بمقاييس كبيرة من حكم بورقيبه وأكثر استبداداً وفساداً، ونقيضاً لما كان اتخذه بورقيبه من إصلاحات في مطلع عهده الرئاسي. وظل بن علي يمارس سلطته على ذلك النحو إلى أن أطاحته ثورة شباب تونس في عام 2011. وهي الثورة التي أعادت الإعتبار إلى التاريخ الوطني القديم الذي كان بورقيبه أحد رموزه متجاوزة شخصيته وطريقة حكمه إلى مستقبل ديمقراطي معاصر جديد مختلف في جوهره عن التاريخ القديم لتونس.